

أين هو "القرار المكين"؟ وما سرّ العثور على هذا الملاذ الآمن في حياتنا؟

كيف نعثر على ملاذنا الحقيقي؟ القرار المكين؛ أكثر من مجرد أمانٍ مادي في عالمٍ مزدحمٍ ومضطرب لا يهدأ لحظةً ولا يمنحنا فرصةً لالتقاط أنفاسنا، يظلّ كثيرٌ منّا يبحث عن "مكانٍ آمنٍ"؛ نقطة هادئة مطمئنة، نلوذ بها من ضجيج الحياة، نستعيد فيها توازننا، ونبتعد قليلاً عن قلق الأيام وضغوطها المتراكمة. هذا التوق العميق إلى الطمأنينة ليس طارئاً، بل متجدّد فينا، حتى إن النصوص الدينية تحدّثت عنه بتعبيرٍ بليغ: "القرار المكين".

وقد يقودنا هذا المصطلح من حيث لا نشعر إلى رحم الأم، تلك اللحظة البدائية التي كنّا نعيش فيها في أهدأ موضع يمكن تخيّله وأكثره أماناً. بيد أن مفهوم "قرار المكين" يتجاوز حدود المكان المادي أو المرحلة الجنينية ليتحول إلى حالة وجودية أعمق وأشمل. إنّ ذلك الموضع الراسخ، المطمئن، الذي يمنح الإنسان إحساساً بالأمان والاستقرار، والذي يمتدّ أثره إلى داخل النفس كما يمتدّ إلى محيطه الخارجي. فهو من جهةٍ مرتبط بالإيمان، والسكينة القلبية، والسلام الداخلي، ومن جهةٍ أخرى، يرتبط بعلاقاتٍ صحيّة، وبيئةٍ داعمة، وظروفٍ تُشعرنا بالانتماء والأمان والنموّ.

في الحقيقة، يُعدّ القرار المكين هو الأرض الصلبة التي ينمو عليها الإنسان ويتفتّح روحياً ومادياً. ومنذ لحظة الخلق الأولى، جعل الله رحم الأم قراراً مكيناً للجنين، ليتشكّل فيه وينمو. لكنّ استمرار هذا القرار في حياتنا بعد الميلاد، يتوقّف على اختياراتنا. فقد نلجأ أحياناً إلى بيتٍ أو عملٍ أو علاقةٍ نظنّها ملاذاً، فإذا بها تتحوّل إلى مصدرٍ آخر للقلق والاضطراب.

في هذا المقال، نغوص في عمق هذا المفهوم، ونتأمّل كيف يمكننا من خلال معرفة ذواتنا، وحسن اختيارنا، والتواصل مع مصدر الهداية، أن نبلغ في خضمّ عواصف الحياة ذلك القرار المكين الذي يقودنا إلى الطمأنينة، والنمو، والكمال.

رحلة الإنسان من البداية إلى المآل: بحثٌ عن مأوى للنمو والمعنى

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ»¹. هذه الآية ترسم لنا مشهدًا بالغ الدقة والروعة لبداية رحلة الإنسان؛ رحلة تبدأ من نطفة ضئيلة لا تُرى، وتمضي نحو مقام رفيع جعله الله فيه خليفةً في الأرض. لكنها ليست مسيرة يسيرة خالية من التحديات، إنها طريق طويل، مليء بالمراحل والمنعطفات، ولكل مرحلة منها حاجة ماسة إلى "قرار مكين" وموضع آمن ثابت مهيأً، ليحتضن بذور النمو والتكامل. سوف نتأمل هنا مسار خلق الجنين داخل الرحم، ونربط ذلك بمفهوم الاختيار في حياة الإنسان، لنكشف أبعادًا متنوّعة لهذا المعنى العميق: "القرار المكين".

إن تحوّل نطفةٍ ضعيفةٍ إلى إنسانٍ مكتمل داخل رحم الأم هو أحد أوضح وأقرب التجليات الطبيعية لهذا القرار المكين. فالخلية الأولى في بداياتها هي هشةٌ للغاية، لا تقوى على الاستمرار لحظةً واحدة ما لم تجد لها مأوى يحميها. لكنّ استقرارها في الرحم، ذلك الملاذ المحكم المصمّم بعناية، يمنحها فرصةً للنمو والتشكّل. ففي هذا الفضاء الحامي، تُلبّي حاجات الجنين بدقة مذهلة، وتوفّر له شروط الحياة شيئًا فشيئًا، حتى يغدو من كيانٍ ضئيلٍ إلى إنسانٍ كامل، نابضٍ بالقوّة والوجود.

هذا النموذج بما فيه من حكمة وإعجاز، يمكن أن نسوقه إلى حياتنا في "رحم الدنيا". فكما لا يمكن لتلك الخلية أن تنمو في بيئة قاسية مكشوفة، كذلك لا يمكن للإنسان أن يبلغ اكتماله النفسي والروحي ما لم يجد لنفسه بيئةً آمنة، داعمة، مفعمة بالرحمة والفهم. فبدون مأوى فكري يحتضن أسئلته، ومناخٍ عاطفي يسكّن اضطرابه، وفضاءٍ روحي يرويه من الداخل، لن يتمكن من النمو، ولا من التفتّح نحو المعنى الحقيقي لوجوده.

القرار المكين في الحياة... ما بعد المكان، ساحةً للتعالي

القرار المكين ليس مجرد موقعٍ جغرافيٍّ أو موضعٍ ماديٍّ. بل هو كلّ ظرفٍ أو حالٍ يشعر فيه الإنسان بالأمان والسكينة، وتتهيأ له فيه الفرصة للنمو والتفتح. قد يكمن في إيمانٍ عميق، أو في علاقةٍ سليمة، أو وسط أسرةٍ حنونة وبيئةٍ اجتماعيةٍ داعمة. وقد يكون في عملٍ ينسجم مع القيم والقدرات، أو حتى في عزلةٍ صامتة تسمح له بالتأمل ومعرفة النفس. العثور على مثل هذا القرار في الحياة هو جزءٌ أساسيٌّ من مسيرة الإنسان نحو الارتقاء. غير أنّ هذا القرار لا يأخذ شكلاً واحداً، فهو يختلف من شخصٍ إلى آخر، ولا يمكن إدراكه أو بلوغه إلا بمعرفةٍ صادقةٍ للنفس.

دور معرفة الذات في بلوغ القرار المكين

لكي يبلغ الإنسان موضعاً يستطيع فيه أن ينمو ويتفتح، لا بد أن يبدأ الرحلة من الداخل: من معرفة نفسه. فاستيعاب المواهب، واكتشاف نقاط القوة والضعف، وفهم الحاجات الحقيقية والقيم العميقة... كلّها عناصر لا تتجلى إلا في ضوء بصيرةٍ صافية. من دون هذه المعرفة، قد يقضي الإنسان سنواتٍ طويلة في طرقٍ خاطئة، يكذب ويتعب، لكنه لا يشعر بالرضا، ويظلّ القلق أو الفراغ يطارده أينما ذهب.

الاختيار: الفرصة الكبرى لبناء القرار المكين

على خلاف الجنين الذي يوضع في رحم الأم دون إرادةٍ منه، فإن الإنسان البالغ يُمنح نعمة الاختيار، ويُدعى إلى أن يصنع قراره المكين بيده. هذه الحرية تحمّله مسؤولية كبرى، فاختيارٌ صائب يمكن أن يرفعه، ويقوده إلى الطمأنينة والنمو، بل إلى مقام "خلافة الله" في الأرض. أما الخيار الخاطئ، فقد يبعده عن مساره، ويتركه في متاهة التيه أو السقوط. لذلك، فإن بناء القرار المكين يتطلب يقظةً في الفكر، وبصيرةً في النفس، وتأملًا في الخيارات. وهو لا يتحقق إلا حين نستند إلى ذلك النور المزروع في أعماق كلّ إنسان، ذلك الذي يقودنا، إن أنصتنا إليه، إلى ملائمةٍ تكمن فيه لا هرباً من الحياة، بل ارتقاءً بها.

التوحيد: أساس القرار المكين في حياة الإنسان

الوصول إلى القرار المكين، ذلك الموضع الآمن، الثابت، والمحفّز على النمو، ليس ثمرة مجرد جهود مادية أو فردية، بل يرتبط بجذرٍ أعمق وأرسخ: معرفة الله وفهم حقيقة التوحيد. فكما لا ينمو الجنين إلا في رحمٍ يحتضنه، لا يستطيع الإنسان أن يسير في طريق الكمال إلا إذا وجد مأوىً روحيًا، وملاذًا معنويًا يستند فيه إلى إيمانٍ راسخ بالله. ليس التوحيد فكرةً نظريةً عابرة، ولا مجرد اعتقاد ذهني، بل هو البنية التي تتشكّل منها شخصية الإنسان. كلّما تعمّق إيمانه، ازداد ثباته كما تستقر الجذور في الأرض، وارتفعت أغصان روحه نحو السماء. مثل هذا الإنسان لا تهزّه العواصف، ولا تكسره المحن، ولا تُضلّه مفترقات الطريق. بل يبقى ثابتًا في خطواته، مستقيمًا في قراراته.

إنّ معرفة الله والاتصال المستمرّ به، يمنحان الإنسان طمأنينةً وسكينةً نابغة من الداخل. هذا النوع من الاستقرار ليس هدوءًا سطحيًا، بل هو يقينٌ يمدّ صاحبه بالقوة، ويمنحه القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة في أوقات الشدة، ويبقيه على طريق الكمال مهما تعقّدت الظروف.

وفي النهاية، فإنّ القرار المكين الحقيقي، ذلك الموضع الذي يجد فيه الإنسان سكونه، وينمو فيه نحو النضج الروحي، لا يُبنى إلا على أساسٍ متين من التوحيد. فمن لا يعرف الله، لا أمان له، ومن لم يربط قلبه بمحبّة الله، يبقى عُرضةً للاضطراب، والتهيه، والفراغ. أما مَنْ غرس التوحيد في أعماقه، فإنه حتى وسط أفسى المحن، يستطيع أن يشعر بالأمان، وأن يستمرّ في النمو. وهذا الإيمان، هو بعينه القرار المكين الذي يهيئ الإنسان في رحم هذه الدنيا، ليولد من جديد في العالم الآخر. ولا شكّ أن العثور على القرار المكين في مجالات الحياة المتعدّدة، كالإيمان، والعائلة، والمجتمع، والعمل، أمرٌ في غاية الأهمية. لكنّ أعظم وأعمق قرارٍ مكين في حياة الإنسان، هو الإتصال بوليّ الله الأعظم، الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وسنخوض في أسرار هذه الصلة المصيرية، وسبب مركزيتها في القرار المكين، في مقالاتٍ لاحقة بإذن الله.

أهمية القرار المكين ودوره في تشكيل أسلوب حياة الإنسان

كما أن الجنين يبقى في رحم الأم كقرار مكين وفي مأمن من الأخطار، وتتاح له فرص النمو والتكامل، كذلك الإنسان في رحلته المتقلبة والمليئة بالتحديات يحتاج إلى "قرار مكين" في حياته؛ موضع آمن وثابت يحفظه من العواصف، ويفتح أمامه آفاق ازدهار مواهبه وقدراته. هذه المواضع الآمنة هي نفس القرارات المكيئة التي تتجلى في مختلف جوانب حياتنا، بدءًا من اختيار شريك الحياة والمهنة، وصولًا إلى معتقداتنا وقيمنا، وهي ما تشكّل في نهاية المطاف أسلوب حياتنا.

إن أسلوب الحياة لكل إنسان هو انعكاس لطريقة نظره إلى الحياة، ولتلك الاختيارات الواعية أو غير الواعية، التي يتخذها في طريقه نحو أهدافه. وبحسب ما يبيّنه علم الإنسان، فإن أسلوب الحياة الأمثل هو ذلك الذي يقود صاحبه نحو الكمال والقرب من الله تعالى. ولبلوغ ذلك، لا بدّ للإنسان من أن يُحسن التعرّف على "القرار المكين" وأنواعه في الحياة، وأن يسعى بعقلٍ وبصيرةٍ إلى ترسيخها وتعزيزها.

إن مفهوم "القرار المكين" يتجاوز كونه مجرد موقع جغرافي أو مكانة اجتماعية، ليصبح حالة روحية عميقة تتشكّل من خلال تفاعلات الإنسان مع خياراته، وسلوكياته، وعلاقاته، وأفكاره. فقد يعيش المرء في قلب مدينة دينية، لكنه بسبب أسلوب حياةٍ خاص به، وتجاهله للقيم الأخلاقية والروحية، يبقى بعيدًا عن القرار المكين الحقيقي. وفي المقابل، قد يعيش شخصٌ آخر في أقصى بقاع الأرض، لكنه من خلال تمسّكه بالقيم الإنسانية والإلهية، وأسلوب حياةٍ نقيٍّ، يكون في قرار مكين راسخ. وقد عبّر الإمام الصادق (عليه السلام) عن هذا المعنى حيث أنه رُوِيَ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ أَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالُوا: نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ، فَقَالَ: مَرَحَبًا بِإِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ قُمَّ، فَقَالُوا: نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الرَّيِّ! فَأَعَادَ الْكَلَامَ، قَالُوا ذَلِكَ مِرَارًا وَ أَجَابَهُمْ بِمَثَلٍ مَا أَجَابَ بِهِ أَوْلَادًا...² فهذا يعني أن الإنسان أينما عاش في العالم، إذا كان في "قرار مكين" والتزم بالمبادئ الواجبة، فهو قُمِّيٌّ، ومن قبيلة محمد وآل محمد (صلى الله عليه وآله). وعلى العكس، فإن من يعيش في مدنٍ دينية كقم أو مشهد، لكنه مولع بثقافة العدو وأفكاره، فليس من هذه القبيلة.

² المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، ج 57، ص 216

إنّ العثور على القرار المكين يمنح الإنسان طاقةً هائلة، تُمكنه من الحفاظ على توازنه وثباته وسط الاضطرابات، ويدفعه بثقة نحو أهدافه. وقد أشار الله في القرآن إلى المراحل الأولى من خلق الإنسان، مؤكِّدًا على أهمية القرار الأمين، أي رحم الأم، في تطور الجنين وتكامله.³ لكن هذا القرار المكين لا يقتصر على رحم الأم، بل هو رمزٌ لكل موضع آمن يتيح للإنسان النمو والارتقاء.

يعدّ اختيار الزوج أو الزوجة الصالحة هو من أهمّ القرارات المكيّنة في الحياة. فكلما كان الاختيار موفقًا، صار الزوجان يدًا واحدة، يتبادلان الفهم والتعاطف، ويخلقان بيئةً مثالية لنمو بعضهما البعض، ويصبحان سندًا وعاونًا في السير نحو الأهداف السامية، فكل منهما قرار مكين لبعضهما. وكذلك العمل الذي ينسجم مع قدرات الفرد، ومهاراته، وقيمه الأخلاقية، ويمنحه شعورًا بالرضا والفائدة، يُعدّ قرارًا مكيّنًا في الجانب المهني. لكن فوق كل ذلك، القرار المكين المعنوي هو الأهمّ على الإطلاق. إنّ معرفة الإنسان لنفسه، وفهمه العميق لغاية خلقه، وإدراكه للعلاقة بين العبد وربّه، تُشكّل الأساس الأكثر رسوخًا لأي قرار مكين. ذلك الإيمان الذي يمنح الإنسان يقينًا بأنه ليس وحده في هذا الوجود، وأن هناك قوّةً أسمى تسانده وتوجّهه. لتقريب الصورة، يمكن تشبيه القرار المكين المعنوي بجذور الشجرة التي تمنحها الثبات، وتحفظها من السقوط أمام الرياح والعواصف. تلك الجذور هي معتقداتنا وقيمنا العميقة، التي تغذي قلوبنا وتوجّه مسارات حياتنا.

ولكن، من المهم أن نتذكّر أن البحث عن القرار المكين عملية مستمرة ودائمة. فمع تغيّر مراحل الحياة وتطوّر الإنسان، تتغيّر حاجاته، وقد يحتاج إلى بيئةٍ جديدة، أو قرار مكين أكثر ملاءمة. ومع ذلك، فإنّ السعي وراء هذا القرار المكين يستحقّ العناء، لأنه بوابةٌ إلى حياةٍ أكثر ثراءً، ومعنى، وطمأنينة، ونجاحًا. وفي هذا الطريق، فإنّ معرفة النفس، واستشارة أهل الخبرة والوعي، قد تفتح آفاقًا رحبة أمام الإنسان. ومتى ما عرفنا

³ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ؛ سورة المرسلات، الآيات ٢٠ و ٢١

أنفسنا، وسعينا لتعزيز القرار المكين في حياتنا، استطعنا أن نتبى أسلوب حياة يقودنا نحو السعادة والكمال الحقيقي.

في هذا الدرس تناولنا مفهوم القرار المكين أو الموضع الآمن من منظور تعاليم علم الإنسان، مستنيرين بمثال تطوّر الجنين في رحم الأم. تحدّثنا عن التشابه بين رحم الأم وعالم الوجود للإنسان، وصولاً إلى مفهوم القرار المكين في مختلف جوانب الحياة. ومن خلال التأمل في مراحل نموّ الجنين داخل رحم أمه الآمن وكيفية تلبية احتياجاته بدقة، توّصلنا إلى أنّ الإنسان كذلك، في طريقه نحو الكمال والسعادة، بحاجة ماسّة إلى قرار مكين في حياته، موضع آمن وثابت يشمل: إيماناً راسخاً بالله، علاقاتٍ سليمة، بيئةً آمنة، واختياراتٍ واعية.

لكن العثور على هذا القرار المكين ليس حدثاً عابراً، بل هو مسارٌ دائمٌ ومتواصل، يتطلّب معرفة النفس، والإيمان بالله، والارتباط العميق بوليّ العصر الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف). وهذا المسار، في نهايته، يؤدّي إلى أسلوب حياة يهدي الإنسان نحو السعادة والكمال الحقيقي.

ما هو قرارك المكين في الحياة؟ ما هي القيم والمعتقدات التي تمنحك الطمأنينة والثبات؟

شاركنا تجاربك ورؤاك، فقد يكون فيها النور لقلوبٍ تبحث عن ملاذها الآمن.